

أمّ الشّرور، الجزء الأول

(الكبرياء والعُجب)

المتروبوليت سابا (اسبر)

يعتقد بعضهم أنّ الكبرياء تكمن في التعالي على الآخرين، وفي الغرور وتعظيم الذات فقط. في الحقيقة، هذا هو الوجه الظاهر من الكبرياء، التي يعتبرها الأدب المسيحيّ الروحي أمّ جميع الشّرور والرذائل.

يكن خطر الكبرياء الأساسيّ في أنّها تحجب رؤية الواقع عن صاحبها، فلا يعود يرى إلا ذاته، التي يعميه تضخمها وتعظيمها والثقة المفرطة فيها. هذا يدفعه إلى أن يحلّل كلّ شيء لنفسه، ويبرّر كلّ تصرف شخصيّ له، ويعتبر نفسه كاملاً، لا يحتاج إلى غيره. في المقابل، لا يرى إلا العيوب في الآخرين، والنقائص في سيرتهم. يعارضهم لمجرد بروزهم، أو انتشار آرائهم.

المتكبر رمانة مهترئة من الداخل، ولو بدت جميلة من الخارج.

تقتل الغيرة المتكبر، لأنّه لا يريد أن يرى شخصاً يمتلك ميزة أفضل منه. وقد تصل الغيرة به إلى إلحاق الأذى بمن يثير غيخته هذه، وربما تودي به إلى القتل. كثيرة هي الأسباب التي تدعو الإنسان إلى الاستغابة والافتراء وتشويه السمعة، لكن ما ليس في بال الكثيرين، أنّ الكبرياء الخفية هي التي تحرك جميع هذه الرذائل.

تولّد الكبرياء، بحسب تعليم القديس يوحنا السلمي، الغضب والتعير والفظاظة والغیظ والصياح والتجديف والمراءاة والمقت والحسد واتباع المشيئة الذاتية والمقاومة والتمرد.

أمّا القديس صفروني زاخاروف (+١٩٩٣)، معاصرنا، فيستفيض في تعداد ما يجتمع في الكبرياء، بكلمات أقرب إلى لغة علم النفس، فيقول: "الكبرياء هي أصل الخطيئة. وكلّ المظاهر التي يمكن أن يظهر الشرّ من خلالها، إنّما تكون مجتمعة فيها: الادّعاء، المجد الباطل، حبّ التسلّط، اللامبالاة،

القسوة، عدم الاكتراث بآلام القريب، ميل الذهن إلى الحلم، تأجج الخيال، التعبير الشيطاني للعين، الطابع الشيطاني لكلّ مظهر، القلق، واليأس، والكره، والحقد، والحسد، وعقدة النقص، التي هي، بالنسبة إلى كثيرين، المدخل إلى الشبق الجسدي، الاضطراب الداخلي المعذب، العناد، الخوف من الموت، أو على العكس، التوق إلى وضع حدّ للحياة بالانتحار، وأخيراً، اختلال العقل الكامل، وهذا أمرٌ غير نادر... هذه هي علامات الروحانيّة الشيطانيّة. لكن، مادامت لا تظهر بوضوح، فإنّها، بالنسبة إلى كثير من الناس، تمرّ خلسة، ومن دون أن يفتنوا إليها، فينقضّ العدو، ويهلكهم".

يعيد آباء الكنيسة سبب سقوط الإنسان الأوّل، من الفردوس، إلى الكبرياء. فكبرياء آدم وحوّاء جعلتهما يحاولان الوصول إلى الألوهة، أيّ البلوغ بصورة الله التي خُلِقا عليها، إلى المثال، من دون الله، لا بل بمساعدة الشيطان. وهذه هي خطيئة الإنسان الأساسيّة حتّى اليوم. لا يريد الله إلى جانبه، لأنّ حضور الله يتطلّب منه أن يكون، أو بالأحرى أن يصير، متواضعاً. وهذا ما يرفضه من صميمه، لأنّه لا يرى وجوده إلا في تأكيد ذاته.

في الواقع، ثمة ميل قويّ في الإنسان نحو الرضى عن ذاته، والثقة بها، إلى درجة مفرطة. هذا ما نسمّيه في أدبنا الروحي داء العُجب، الذي هو جذر الكبرياء. ويسمّيه القديس بوحنا السلمي "السابق للكبرياء". لا نقصد بالعُجب مجرد الإعجاب بالذات وعبادتها، بل أيضاً، طلب المديح من الآخرين، والظهور بمظهر حسن، قد يناقض الواقع، أمامهم، وإظهار الفضائل والمواهب والقدرات، أمامهم. هذا كلّ، ليس بهدف خدمتهم، وإنّما بهدف الحصول على تقديرهم ومدحهم، وإعلاء مقامنا في عيونهم.